الصورة اللّونية في شِعر الخمرة – الخالديان أنموذجًا

The color image in the winery's poetry The Khalidian is a model

رشا علي أحمد الطائي
د. منتصر عبدالقادر الغضنفري
أستاذ
جامعة الموصل – كلية التربية للعلوم الانسانية

Rasha Ali Ahmed Al Taie
Dr. Montaser Abdul Qadir Al-Ghazanfari
Professor
University of Mosul- college of education Humanities sciences

Dr.mutasir2004@gmail.com

تاريخ الاستلام ٢٠٢٢/١٢/١٢
تاريخ القبول ٢٠٢٣/١/٩

الكلمات المفتاحية: الصورة اللونية، شعر الخمرة، الخالديان

Keywords: color image, wine poetry, immortals

الملخص

عرف العرب الخمر قديماً، تلك المعتصرة من العنب والتمر والشعير، وتصرفوا في أسمائها وكناها بحسب اللون ودرجة الاسكار والبلاد التي كانت تجلب منها. والخمريات تطلق على الأشعار التي تتناول عالم الشراب، بدءاً بالخمرة وأوصافها، مروراً بأوانيها وأشكالها، ورجوعاً إلى مواطنها وكرومها ووصفاً لمجالسها وما تضمّنه من شقاة وندمان وغناءٍ ولهو وطرب، وتتبعاً لتأثيرها في النفس ودبيبها في مفاصل الجسد، وما يحصل منها من نشوة وخيلاء وما يجري في مجالسها من طرائف ولطائف، وطقوس وشعائر، وغير ذلك ممّا جعل القصائد الخمرية أو الابيات التي تضمنها قصائد الشعر العربي في هذا الموضوع تحتل مكانة بارزة في الأدب العربي.

ويتناول هذا البحث صورة الخمرة وألوانها وأحوالها وتجلياتها في شعر الخالديين، ويحاول الكشف عن دقائقها وطباع قائليها.

Abstract

The Arabs knew wine in the past, those squeezed from grapes, dates and barley, and acted in their names and nicknames according to the color, degree of intoxication and the country from which they were brought.

The wines are called poems that deal with the world of drink, starting with the wine and its descriptions, passing through its utensils and forms, and a return to its habitats and vineyards and a description of its councils and what it contains of misery and regret and singing and fun and rapture, and tracking its impact on the soul and its bears in the joints of the body, and what happens from it from ecstasy and vanity and what is happening in its councils of jokes and sects, rituals and rituals, and other things that made the wine poems or verses included in the poems of Arabic poetry on this subject occupy a prominent place in Arabic literature. This research deals with the image of wine, its colors, conditions and manifestations in the poetry of the Khalidians, and tries to reveal its minutes and the character of those who say it.

المقدمة

لقد شغف الشعراء العباسيون بالخمرة وساروا في وصفها إلى جنب التغزل بالمرأة ووصف الطبيعة فأبدعوا في وصف آنيتها ومجالسها وتصوير الساقي والنديم ومجالس الشرب(١)، كما برعوا في وصف ألوانها. ولما كانت "الخمرة لا تتوفر إلّا في مجتمع يكثر فيه الترف واللهو والراحة "(٢)، فقد كان لترف العباسيين واختلاف طوائفهم واختلاطهم بثقافات أخرى كالفارسية واليونانية أثر في شيوع هذا الغرض من الشعر وانتشاره في العصر العباسي.

وقد عاش الشعراء في العصر العباسي حالتين من الشعور: شعور الرهبة من تعاطيها والخوض في الحديث عنها بحكم تحريم الإسلام إياها، و شعور الرغبة فيها و الكتابة عنها، باعتبار البعد النسبي عن سنوات صدر الإسلام الأولى، وانفتاح الدولة على بهارج الدنيا وزخرفتها، وما أنتجته الحضارتان الفارسية واليونانية، وما دخل على العرب بعد فتح البلدان من مفردات الحياة المتطورة، ولاسيما على مستوى الخمرة والنساء(٣)، ومن ثمة فقد تناول الشاعر العباسي موضوع الخمرة بنسبة أقل حرجاً من الشاعر الإسلامي والأموي، وأقل استقراراً من الشاعر الجاهلي "وفي الحق أن الشعر قد سلك طريقة تكاد تخالف كل المخالفة أيام بني أمية، فنشأت معانٍ جديدة، وذهب الشعراء مذاهب مختلفة في وصف هذه المعاني والتعبير عنها، ونشأ عن هذه المذاهب المختلفة ضروب من التصرف في فنون القول والاختيار بين ألوان الكلام"(٤) حتى "تهالك الشعراء عليها من حولهم وأصبحت من أهم الموضوعات الجديدة في الشعر العباسي"(٥).

ويرى الدكتور إيليا حاوي أن من أهم العوامل المؤثرة في تطور شعر الخمرة في العصر العباسي تتمثل فيما يأتي(٦): الحضارة والعمران، والتفرغ والاستقرار، والغلامية، ونمو العقل وانتشار الالحاد الفلسفي، والشعوبية.

---

(١) ينظر: فن الوصف وتطوره في الشعر العراقي الحديث، محمد محسن علي مجيد: ١٧٨.

(٢) شعر اللهو والخمرة تاريخه وتطوره، جورج غريب: ٦٥.

(٣) ينظر: الخمرة في شعر أبي الشيص الخزاعي، عبد الامير ماذي مذكور، مجلة المورد، المجلد ٤٨، العدد (١)، ٢٠٠٥: ١٤٤.

(٤) حديث الأربعاء، طه حسين: ٣٤٠.

(٥) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، شوقي ضيف: ٦٧/٤.

(٦) ينظر: فن الشعر الخمري، إيليا حاوي: ١٧٨، ١٧٧، ١٧٦، ١٧٤، ١٧٣.

قال أبو بكر[١]: (من الخفيف)

رَقَّ ثُوبُ الدُّجَى وَطَابَ الهَـــــــــواء وَتَدَلّتْ للمـــــغْرِبِ الجُـــوزاءُ
والصّباح المُنيرُ قدْ نـــشرتْ مـــــنـــــهُ على الأرضِ رَيطةٌ بيـــضـــاءُ
فَاسقِنيها حَتى تَّرى الشمـــسَ في الـــــ غَربِ عليها غِلالةٌ صَـــــفراءُ
قهوةٌ بابليةٌ كـــــدمِ الشَـــــــــــا دن بِكراً لكنّـــــــــها شمـطاءُ
قدْ كَستْها الدّهُـــــورُ أرديـــــةَ الرقـــ ةِ حَتى جَـفا لَديها الـــــــهواءُ
فَهي في خَدِ سَاقيها صُـفرةَ التّبـــــــــ رِ وفي الخَـــــــدِّ وَردةٌ حمراءُ
عَجباً مَا رأيتُ مـــــن أَعجَـــب الأشـــ ياءَ تَقدِير مِنْ له الاشـيـــــاءُ
سَبَجٌ يَستحيلُ مِـــــنهُ عَقيـــــــــقٌ وظَلامٌ يَنْسلُّ مِنـــــه ضيـــاءُ

تتمثل في هذا النص صورة تضج باللون والحركة، أما اللون فيتمثل في البياض والسواد وقد انتزعهما الشاعر –عبر التشبيه– من الصبح حينما شبهه بإنسان يرتدي رداءً أبيض، أما الحركة فتمثلت في انسحاب الصفة اللونية –السواد– بدلالة رقة ثوب الدجى وتواريها خلف بياض الصبح، وكأن الشاعر يرسم لنا لوحة تتحرك مكوناتها بفعل اللون والضوء، متمثلاً بضوء الشمس، وهذا ما جسدته الأفعال (تدلت، نشرت)، فالشاعر مستغرق في شرب الخمر طوال الليل، حتى بزوغ الفجر وتدلي نجم الجوزاء. بل إنه يطلب من ساقيه أن يستمر في سكب الخمرة إلى لحظة غروب الشمس بأشعتها الحمراء الممزوجة بشيء من الصفرة الرقيقة، أي البرتقالية؛ ذلك أن اللون البرتقالي يتكون عن طريق مزج هذين اللونين[٢].

ويشكل أبو عثمان صورة مجلس الخمر من خمرة القهوة[٣] البابلية[٤]/ الخمرة باستخدام الألوان غير المباشرة؛ فقد اتخذ من الدم صورة لها، مع ملاحظة أن تشبيه تدفق الخمر من الدن بتدفق الدم من الوريد بجامع الاحمرار صورة منفرة للنفس ، ومشوهة للجانب الفني؛ لأنها عاجزة عن خلق انسجام نفسي بين الدلالة والاحساس بها، فهو باعث للألم

---

(١) ديوان الخالديين، جمع وتحقيق: د. سامي الدهان: ٩-١٠.

(٢) ينظر: طاقة الألوان ،مهما محمد ٦٥ .

(٣) القهوة من أسماء الخمرة ، وقيل سميت بالقهوة لأنها تقهي شاربها عن الطعام أي تذهب بشهوته فتشبعه ينظر: المخصص، ابن سيده: ١٤/١١ وينظر: فقه اللغة، أبو منصور الثعالبي: ٤٠١.

(٤) " بابل: تنسب إلى مدينة بابل، بابل: بكسر الباء اسم ناحية منها الكوفة والحلة، ينسب إليها الخمر والسحر" معجم البلدان، ياقوت الحموي: ٣٠٩/١ .

والموت[١]. ونجد في ربط الشاعر بين الدم والخمرة بما يحيلان إليه من لون نسقاً دلالياً يعيد تشكيل المدركات اللونية بصورة تتضمن النفور للشاعر والمتلقي[٢].

ويؤنث الشاعر الخمر فيمنحها طابعاً انثوياً بدلالة شمطاء، ولعله أراد بذلك بشدة وصفها التأثير وقوة الفعل وما إلى ذلك مما تصف به النساء من كبيرات السن، بمعنى أنها صغيرة السن ولكن صفاتها صفات النساء الكبيرات الشمطاوات، بمعنى أنها معتقة؛ فكلما كانت الخمرة عتيقة كانت أجود.

وقد كسا الدهر هذه الخمرة من الأردية الرقيقة حتى جفا لديها الهواء، وفي هذه الصورة يعبر أبو بكر بالمحسوس عن المجرد؛ فقد وظف كلمة (كستها) بدلالتها الحسية، التي تشير إلى عملية ارتداء الملابس أو أي شيء آخر، يتبعها بفاعل هو (الدهور) ومفعول به ثانٍ هو (أردية الرقة)، ولفظة (الرقة) تحيلنا إلى وصف مادي للخمرة يحكي طبيعة تكوينها.

وهذا التراسل بين الحسي والمعنوي يعطي الصورة حافزاً تخيلياً[٣] قائماً على الاستعارة؛ ذلك أن الشاعر جعل من الدهر إنساناً معطاءً كريماً، يهدي الخمرة اردية معنوية ، تكسوها عبر الدهر فتصبح معتقة رقيقة تخمر شاربها. وهكذا عملت هذه النمطية القائمة على الاستعارة المكنية على الترابط بين طرفي الصورة وجعلتها تنصهر في قالب استعاري منمق يقوم على تراسل المحسوس بالمجرد[٤] .

وتتجلى ألوان الخمرة في هذا النص لأبي بكر، لتكشف عن دلالات فنية افصحت عن نيات الشاعر؛ فقد كون صورة متكاملة عن ألوان الخمرة ، فجمع بين اللونين الأحمر والأصفر اللذين يعدان من أشد الألوان إغراءً وجمالاً[٥]، تجلىّ في خد الساقي اللون الأصفر وهو من الألوان الساخنة، ويمثل قمة التوهج والاشراق، ويعد أكثر الألوان إضاءة ونورانية؛ لأنه لون الشمس ، ومصدر الضوء والحرارة والحياة والنشاط والغبطة والسرور[٦]، أما الأحمر فتجلى في الخمر فهي وردة حمراء في خد شاربها، فقد استعار لون الورد الأحمر للخد من

---

(١) ينظر: شعر الخمرة في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، فواز شاكر أحمد الشروف، إشراف الاستاذ الدكتور علي عمرو، جامعة الخليل، فلسطين، ٢٠١٣: ١٦.

(٢) ينظر: اللون ودلالته الموضوعية والفنية في الشعر الاندلسي، علي إسماعيل جاسم: ١١٢ .

(٣) ينظر: تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، نعيم اليافي: ٢٢ .

(٤) ينظر: شعر الخالديين – دراسة فنية، شلاش القداح: ١٤٠ .

(٥) ينظر: الإضاءة المسرحية : ٧٦ .

(٦) ينظر: الإضاءة المسرحية، عبد الوهاب شكري: ٧٦ .

حيث أثر الخمرة فيه، فهي "إذا أرقت قليلاً كانت كلون الورد الأحمر فهي وردة"[١]. ليتجلى اللون الأسود في لوحة الخمر هذه بدلالة (سبج)،عبر انحسار ظلمة الليل، بقرب ظهور الصباح. وباختيار هذه الدرجة من اللون الأسود فإنه يبعث في صورته بعضاً من الضوء ودعوة إلى الحركة، وذلك بفعل مخالطة الأسود للون الأبيض، والتغيير من حياديته في هذه اللوحة[٢]. ولعله لا يخفى أن النص تحتويه ثنائية (الضياء /الظلام)؛ فمع أنّ اللون يشتغل على مساحة واسعة بفاعلية شعرية تنتظم الصورة كلها فإن التركيز كان على ثنائية الأبيض والأسود[٣] على نحوٍ واضح؛ ليحقق التأثير في المتلقي، مما يحدث قيمة جمالية في النص. وعلى الرغم من أن المشهد كان متشحاً بالسواد (سبج، ظلام) فإن الشاعر استطاع أن يبرز عدة ألوان من خلال سعيه إلى الحديث عن مكان الشرب ،ووصف الخمرة.

وقال أبو عثمان[٤]: (من المنسرح)

فَهاتِها كالعـروسِ مُـــحمرةَ الـــ خَدّينِ في مِعجرِ من الحَـــــبَبِ

كادتْ أن تكونَ الـهواء في أرجِ الـ عنبرِ لو لَم تَكُنْ من العِـــــنِبِ

يجمع الشاعر أبو عثمان في هذين البيتين بين –الخمرة والمرأة– عنصري اللذة المادية، ومصدر اللهو والسعادة فيبرز اللون الأبيض بصورة غير مباشرة من خلال" لفظة(عروس) التي أحالت إلى اللون الأبيض مصدر الجمال والبهاء"[٥]، وهكذا فلم يكن توظيف اللون داخل الصورة الشعرية خالياً من أي اعتبارات؛ إنّما هي عملية مؤسسة في إطار من الرؤية والاحساس اللذين انطلق منهما الشاعر[٦] وهو إحساس الشاعر بالفرح والسعادة، فجاء الإحساس مطابقاً لصفة اللون، ثم يبرز اللون الأحمر في هذه المقطوعة من حيث هو لون فاتح للشهية، ملفت للنظر، ممتع[٧] فهذه الخمرة كالعروس محمرة الخدين، وقد توشحت بالفقاقيع البيض التي تعلوها، وهكذا يمثل اللون الأحمر إبهاراً وإثارةً للنفس[٨]، ليشكل الشاعر

---

(١) فصول التماثيل في تباشير السرور، ابن المعتز: ٨٧.

(٢) ينظر: الألوان نظرياً وعملياً، إبراهيم الدّملخي: ١٠٩.

(٣) ينظر: شعرية النص المعري، نوار عبد النافع، أطروحة دكتوراه، إشراف الاستاذة الدكتورة: بشرى البستاني، جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٢: ٥٣.

(٤) ديوان الخالديين: ١١١.

(٥) معجم تفسير الاحلام، ابن سيرين: ١٦٧.

(٦) ينظر: الصورة اللونية في الشعر العماني الحديث، سالم الجديدي: ١٢٤.

(٧) ينظر: طاقة الألوان، مها محمد سعيد: ٢٨.

(٨) ينظر: الرسم بالألوان في القرآن، احمد رأفت علي: ١٤٩.

لوحة بصورة تشبيهية، انتظمت في البيت، وارتسمت من خلالها جمالية اللون الأحمر وهو اللون المثير للمشاعر، والذي يمثل الدافع والإرادة، وكل أشكال القوة والجمال(١).

قال أبو عثمان(٢): (من المنسرح)

فَلو تَرى الكأسَ حِينَ يَمزجُـــها رَأيت شَيئاً مِنْ أَعجبِ العَـجبِ

نارٌ حَوَاها الزُّجَاج يُلهِبـــها الـ ماءُ ودرٌ يَـــــدورُ في لَـــهَبِ

يصور الشاعر أبو عثمان ، مشهد صب الخمرة في الكأس ومزجها ، ويصفه بأنه من اعجب العجب، فهي –أي الخمرة– كالنار من شدة قوتها بما يحيل إلى اللون الأصفر المائل إلى الحمرة. وإذ شبهها بالنار فقد وفق في التشبيه من حيث أن لون النار لون ساخن علمياً، وهو تشبيه مفرد محسوس مغرق بالحسية يدرك بحاستي اللمس والبصر. وهي كالدر/بياضاً يدور في لهب. وهكذا فإن لونها هو الأبيض بدلالة الدر، وفعلها هو الأحمر بدلالة النار. وبمزجها بالماء صارت منسابة سريعة الجريان غير أن فعلها مخالف لفعل الماء وهنا تبدو المفارقة (٣).

وإن هذه الصورة في بنيتها التركيبية المعقدة، التي تقوم في داخلها على عملية مزج استعاري، بين الاستعارة التصريحية والمكنية. تذوب في بوتقتها الابعاد الفكرية والتاريخية للشعوب. ولاشك في أن أبا عثمان عندما جمع بين النار والماء– وهما متضادان –كان يهدف من وراء ذلك إلى إظهار صراع الحضارات(٤)؛ فالنار في المفهوم الإسلامي رمز للنور والوجود، والماء في رمز لاستمرارية الحياة وتدفقها، قال تعالى: (وجعلنا من الماء كل شيئ حي ٣٠ّ) (٥). و قد أضفى الشاعر على هذه الصورة رونقاً جمالياً حينما استطاع أن يمزج بين الاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية في آنٍ واحد، من دون أن يختل جزء من هذه الصورة التي المركبة، المتحد بعضها ببعض.

فالخمرة هي نار وهي درّ، وهذا تشبيه بليغ، أمّا الاستعارة المكنية فتمثلت في قوله:(يلهبها الماء) إذ شبه الماء بالنار فحذف المشبه به وأبقى شيئًا من لوازمها، وهو الإلهاب؛ لذلك نرى أنّ بنية هذه الصورة فيها نوع من التعقيد تحتاج إلى جهد من المتلقي

(١) ينظر: صورة اللون في الشعر الاندلسي، دراسة دلالية فنية، حافظ المغربي: ١٨٩.

(٢) ديوان الخالديين: ١١١.

(٣) ينظر: شعر الخالديين: ١٣٧ .

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ١٣٧.

(٥) الأنبياء: ٣٠.

للوصول إلى عناصرها الخفية لغوياً ومعنوياً. وقد استطاع الشاعر أن يوصل إلينا الفكرة بدقة متناهية[١].

وقال أبو بكر[٢]: (مجزوء الرمل)

قامَ مِثل الغُصنِ المَـــــيـ ـاد في غضِ الشّبـــــــابِ
يَمزجُ الخَمرَ لنـــــا بالصـ ـفو مِن ماء الرّضَـــــــابِ
فكأنَ الكـــــــأسَ لمـّــا ضَحِكتْ تَحـــتَ الحبـــابِ
وَجْنَةٌ حَمراءُ لاحَـــــــتْ لكَ منْ تَحـــت النَّقـــابِ

يتلطف أبو بكر الخالدي في وصف الساقي، والكأس، والخمر، والحباب؛ فهو يمزج بين وصفه الساقي، وتشبيهه إياه بالغصن الميادِ، دلالةً على رقته وتثنيه في مشيته من جهة، ووصف الخمرة وقد مزجها الساقي بماء الشراب الصافي من جهة ثانية، فيرسم لنا صورة بديعة وخلاقة فقد شبه ظهور الخمرة بعد مزجها بالماء –وقد احمرّت في الكأس – بوجنتي عذراء بدتا من تحت النقاب الذي يغطيها[٣].

إن تغزل الشاعر بالخمرة يدلّ على انسجام واضح بين ما يثيره اللون الأحمر الساخن ولاسيما وأنه يمزج بين لون الخمر وخد العذراء، ليبعث في نفسه انتعاشاً وجدانياً. وهكذا فإن "التشبيه والتشخيص والتجسيد والتجسيم والتراسل والتجريد والألوان تعدّ صورة في ذاتها؛ لأنها وسائل تركيبية معقدة، تقوم بنقل الصورة الذهنية من حيز العقل والذات إلى تجربة فنية واقعية"[٤]. فالشاعر يقول بأن الكأس ضحكت بما فيها من خمرة فبدت كأنّها وجنة حمراء.

قال أبو بكر[٥]: (من البسيط)

أهلاً بِشمسِ مُدام* مِن يَدي قَمر تَكَامَلَ الحُسنُ فيه فَـــــهو تَياه

يشبه الشاعر الخمرة بالشمس من حيث سطوع شعاعها وشدة نورها، وهذا الوصف لشعاع الخمر ونورها، إلا إسقاط من الشاعر لحالته النفسية التي أصبحت تشعر بالدفء بمجرد تناوله الخمر. ونجد أنّ الشاعر قد أسبغ على الخمرة لوناً أصفر؛ ليجمل صورتها، فقد

---

(١) ينظر: شعر الخالديين: ١٣٧.

(٢) ديوان الخالديين: ٢٠.

(٣) ينظر: شعر الخالديين: ٧٣.

(٤) مقومات الصورة في الشعر في مملكة غرناطة، أطروحة دكتوراه، أحمد إسماعيل عبد الحميد، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة ،١٩٩٦: ٦٠ .

(٥) ديوان الخالديين: ١٢٥.

أضفى، عليها عبر مفردة الشمس التي خاطبها بها كماً كبيراً من الضياء. إنّها لعبة العقل إزاء ما لا يعقل، ولكنه كان وصفاً رائعاً في خيالات شعرية تتجلى في هذا الوصف(١).

ويخط الشاعر صفة جمالية للساقي، حين يشبهه بالقمر/ الأبيض، دلالة على البهاء والجمال. وهو معنى متداول بين الشعراء منذ القدم، لكنه في هذه اللوحة قائم على المعادلات الحسية؛ فالخمر شمس، والساقي قمر يدور في فلكها مستمداً نوره منها، وهي صورة مجازية مبنية على الاستعارة التصريحية(٢).

قال أبو عثمان(٣): (مجزوء الرمل)

يا نَدِيمي أطلِقِ الفَجـــرَ رَ فما لِلكـــأسِ حبـــسّ

قَهوةٌ تُعطيـــــكَها قَبـــلَ طُلوعِ الشّمس شَمـــسّ

وهي كَالمـــــريخِ لـــكِن هَي سَعدٌ وهو نَحـــــسّ

يؤدي البعد الزمني لترتيب الصياغة دوراً أساسياً في تشكيل الدلالة؛ إذ قصد الشاعر أن يكون للزمن سيطرة واضحة، وذلك من خلال قوله (حبس) فهو يرى أن الفجر الذي يحيلنا إلى اللون الأبيض هو حبس للخمرة؛ فيرصد الفترة الزمنية التي حددها بالليل حتى مطلع الفجر؛ إذ يطلق فيها سراح الخمرة فتكون مواتية لتناولها معلناً عن مدى شغفه ونديمه الشديد بالخمر.

وإذ يشير الشاعر إلى ضوء الخمرة (القهوة) فإنه يقدم ذلك بصورة جميلة تكمن فيها براعته في تصوير شعاعها الذي بدا كالشمس من شدة توهجه واضاءته، وما ذاك إلا تعبير عن مدى ابتهاجه بشربها.

---

(١) صورة اللون في الشعر الاندلسي: ١١٣.

(٢) ينظر: صورة الساقي في خمريات النواسي، أحلام عبد الموجود النتشة اشراف الاستاذ الدكتور: حسام مجمد عمر جلال التميمي، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، فلسطين، ٢٠١٣: ١٠١.

* المدام والمدامة: من أسماء الخمر وسميت مدامة؛ لأن ليس من شيء تستطيع إدامة شربه إلا هي، وقيل سميت مدامة لإدامتها في الدن زماناً حتى سكنت بعدما فارت. ينظر: لسان العرب، ابن منظور:٢١٤ .

(٣) ديوان الخالديين: ١٣٤.

إن من المظاهر التي ارتبطت بطقوس الشراب، ونالت عناية الشعراء ذكر الكواكب، حتى ارتبط بعض منها بحالات نفسية يعبر عنها بوساطتها الشاعر؛ فالمريخ الذي يحيل إلى اللون الأحمر وقد شبه الشاعر الخمرة به فكلاهما أحمر اللون يعد نذير شؤم، أما الخمرة فتعد من السعد؛ لأنها تتضمن السعادة بما فيها من لهو وطيش، بدليل ما أشار إليه من إحساسه بشعاع يصدر منها، لكن المريخ نحس، كونه لا يمثل وجوداً للحياة فيه .

وكان لخيال الشاعر دورُ بارزُ في رسم الصورة؛ إذ نسج من عالم الأشياء المرئية والمحسوسة صوراً ومعطيات ذهنية، تكونت في مخيلته، فضلاً عن "تنظيم هذه الصورة ،والتوفيق بين ما يكون فيها من متناقضات عن طريق رؤية الوحدة الباطنية مختلفة وراء هذه المتناقضات"(١) ولاشك أن الصورة الفنية بنت الخيال و"وسيلة نقل تجربة الشعرية، وإنّ مقياس الصورة الأدبية هو قدرتها على نقل الفكرة، ولا يتم هذا النقل إلّا عن طريق تضامن كل من خيال الشاعر، وعاطفته، ولغته على نحو يضمن به نقل مشاعره إلينا"(٢) .

وقال أبو بكر(٣): (من الطويل)

كأنَ حَبابِ الكأسِ في جَنباتِـها كَواكِبُ دُرٍّ في سَـــماءٍ عقيقِ

يصف الشاعر خمرته، مشبهاً الفقاعات (الحباب) التي تكون في جوانب كأس الخمرة بالكوكب الدري، الذي يحيلنا إلى اللون الأبيض. وسماء الكأس عقيق أحمر؛ إذ الخمرة حمراء. وهكذا يتقن الشاعر وصف الخمر، معتمداً الإحالة إلى اللون عبر مفردات مثل (، در، عقيق)؛ ذلك أن توظيف اللون "يحمل قدراً كبيراً من العناصر الجمالية، وإضاءاتٍ دالة تعطي أبعاداً فنية في العمل الأدبي على وجه الخصوص"(٤) .

(١) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، محمد زكي عشماوي: ٥٩.

(٢) القصص القرآني في الشعر الاندلسي، أحمد حاجم الربيعي: ٢٦١.

(٣) ديوان الخالديين: ٧٤.

(٤) اللون ودلالته في الشعر الأردني، رسالة ماجستير، ظاهر محمد هزاع الزواهرة، اشراف الاستاذ الدكتور: ناصر يوسف شبانة، الجامعة الهاشمية، الأردن، ٢٠٠٧: ١٣.

قال أبو بكر[١]: (من المنسرح)

وعِندنا عاتِقانِ حَمراءُ كالشّمـ سِ وأُخرَى صَفراءُ كالقـــمرِ

بِكرَان هذي تُعابُ بالكـبر الـ بَادي وَهذي تُعابُ بِالصّـــغرِ

تتراوح خمرة أبي بكر في هذين البيتين ما بين اللونين الأحمر والأصفر، مشبها إياها بعناصر الطبيعة ، فكثيراً ما تحدث الشعراء قديماً عن "شعاع الخمرة وشبهوه بمصادر الضوء كالشمس والنجوم والكواكب"[٢]، فعندما يسطع نور الشمس يميل شعاعها إلى البياض، مما لا يتفق مع واقع الخمرة في الكأس، أما عندما تكون الشمس قرناً، وذلك في الصباح أو المساء، عند طلوعها أو غروبها فإن شعاعها يكون مشوباً بالاصفرار، وبشتى الألوان الزاهية التي تشبه الألوان المتوهجة في هالة حول الشمس.

ويعمد الشاعر إلى تقسيم الصورة اللونية في هذه المقطوعة، فلديه عاتقان: إحداهما خمر حمراء كالشمس، وأُخرى امرأة " صفراء كالشمس" وكلتا العاتقين فيهما صفة التوهج والصفاء والضياء، فهما متماثلتان من حيث الصفات والألوان .

قال أبو بكر[٣] : (من الكامل)

ومُدامةٍ صَـفراءَ في قـــارُورةٍ زَرقاءَ تَحمِلُها يدٌ بيـــــضــاءُ

فالرّاحُ شَمسٌ والحبابُ كَواكِـبٌ والكفُ قُطبٌ والإناءُ سَـــــماءُ

يرسم الشاعر لوحة جميلة لخمرته ،موظفاً فيها عناصر الطبيعة الصامتة من شمس وكواكب وسماء، وقد أحالت هذه العناصر إحالة مباشرة إلى الألوان، فضلاً عن تصريح الشاعر نفسه بها فالأصفر/الشمس إشراقاً وضياءً، والأزرق/ السماء/ الإناء دلالة على الحركة الدائمة[٤]، لكثرة تناول الخمرة، والأبيض/ النجوم/ فقاقيع الخمرة فهذا الإناء في حركة دائمة لكثرة تناول الخمرة، والأبيض فقاقيع الخمر المتلألئة. ويؤكد اللون الأبيض في قوله: (ويد بيضاء) فاليد البيضاء فيها بعدٌ كنائي يدل على رقة الساقي، فهو رمز للكرم جسدته العبارة الكنائية "يد بيضاء"[٥] لارتباط مجالس اللهو والخمر بالكرم ولعله يشير إلى يد الساقي فالراح: اسم للخمرة وسميت به " لان صاحبها يرتاح إذا شربها، أي يهش للسخاء والكرم وكل خمر

---

(١) ديوان الخالديين: ٥٩–٦٠.

(٢) فن الشعر الخمري: ٥٧ .

(٣) ديوان الخالديين: ١١.

(٤) ينظر: الألوان نظرياً وعملياً: ٥١.

(٥) ينظر: اللون في الشعر الاندلسي، رسالة ماجستير ، عبير فايز، إشراف الدكتور: فيروز الموسوي، جامعة البعث، سوريا، ٢٠٠٧: ١٣٣. نقلاً عن المتن اللغوي وتشكيلاته الدلالية في النص الشعري عند نزار قباني، هايل الطالب: ١٤١.

راح"[١]. "وهكذا تأتي هذه الصور الرائعة للكؤوس –الخمرة، بعد الوصف الحسي لها، وهي شموس تطلع على الشرب لتضيء وجودهم، ثم– بدلاً من أن تبقى ضوءاً خارجياً– تتجه إلى الداخل وتنحل في الأعماق"[٢]، وقد اعتمد الشاعر في هذه المقطوعة التشبيه وسيلة بلاغية شكّل بها الصورة، وهي تعدّ أساس قيام النص الشعري[٣]، وهي هياكل حية متحركة تلتقي بها الاصوات وتتحرك بها الكلمات[٤] في أنساق تهيئ الصورة للتبلور والظهور. ولم تكن تلك الوسيلة وصفاً لحالات شعورية ، بقدر ما كانت خلقاً فنياً يدل على العمق الفكري[٥] لدى الشاعر؛ لوجود علاقة وانسجام بين المدركات الحسية والأفكار[٦] لا يفهمها إلّا الشاعر نفسه؛ لما يتمتع به من المهارة الفنية في التصوير.

وقال أبو عثمان[٧] : (من السريع)

عِندنَا صَفراءُ مِـــنْ قَامَـــرتْ	**بِالسُّكرِ مِنّا فَهو مَقـــــمُورُ**
سُلاف*أعنـــــابٍ فعنـقودها	**من قِبلِ أن يُعصَر مَعـــصُورُ**
زادَ على المِصباحِ إشراقُـــــها	**فهو ظَلامٌ وهي النـــــــورُ**
حتى إذا مَا انّحلّ جَيبُ الدُّجى	**فينا وجَيبَ الصُّبـــــح مَزرُورُ**
جَرَتْ هناتٌ لي أَجَمـــــــلْتُها	**فهل لها عِندكَ تفســــــير؟**

(١) المخصص:٧٤/١١. وينظر: المختار من قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور: ٢٨.

(٢) جدلية الخفاء والتجلي، كمال أبو ديب ٢٠٤.

(٣) ينظر: الصورة البيانية بين النظرية والتطبيق، حنفي محمد شرف: ١١٤.

(٤) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، محمد حسين عبد الصغير: ١٤٩.

(٥) ينظر: الشيب والهرم في الشعر العربي في العصرين الإسلامي والاموي ودلالتهما الفنية، أطروحة دكتوراه، علي حسين جاسم الجنابي، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٩٧: ١١٧.

(٦) ينظر: مسائل في فلسفة الفن المعاصرة، جان ماري جوبتين: ٧٩.

(٧) ديوان الخالديين: ١٢٤.

يشكل الخمر والقمار ركنين اساسيين في الحياة الجاهلية لا يمكن الاستغناء عنهما، وهما مرتبطان باللهو والكرم[١]، على الرغم من تأثيرهما المدمر في المجتمع، والشاعر في هذه المقطوعة يشبه الخمرة الصفراء بإنسان لاهٍ يلعب القمار، فضلاً عن كونه مخموراً، مشيراً إلى البعد الزمني المتمثل في الليل؛ ذلك أن الاثنين يحصلان في أثناء الليل، وكون اللون الأصفر من اكثر الألوان حركة[٢] فقد ناسبت صفته هذه فعل الحركة المتمثل بالشرب ولعب القمار.

ثم يشير الشاعر إلى نوع الخمرة فهي السلاف، وهو: أول ما يعصر من الخمر[٣].ولونها أحمر أحالت إليه مفردة (أعناب)، والعناب: "ثمر أحمر اللون"[٤]، وهو يشير عبر هذه المفردة كذلك إلى طبيعة تكوين هذه الخمرة فهي مأخوذة من العنب.

ومن الملاحظ أن اللونين الأحمر والأصفر، يسيطران على إحساس الشاعر في هذه المقطوعة دون غيرهما من ألوان الخمر، فهما لونان مثيران ساخنان، يبعثان البهجة والانشراح، ومن هنا كانت مقطوعته محملة بما وراء اللون من عوالم تكشف عن نفسية الشاعر، الألوان، فقد حمّل الألوان فيضاً من روحه وإحساسه، فهو يقف عند اللون وقفة تهدف إلى استنطاق ما وراءه[٥]، وما يحيل إليه من دلالات نفسية، وبما تحمله هذه الألوان من أبعاد تعكس مشاعره. وتتمحور في النص ثنائية ضدية تمثلت في (ظلام / نور، دجى /صبح) أوحت باللونين الأبيض والأسود، فضوء الخمرة مثل النور في النص حتى صار المصباح مظلماً إذا ما قورن بها بما ينبعث منها في ضياء إشراق .

---

(١) ارتبطت الخمرة بالكرم ومنه قول عمرو بن كلثوم:

ترى اللحز الشحيح إذا أمرت عليه لماله فيها مهينا

(ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق: إميل بديع يعقوب: ٦٥).

(٢) الألوان نظرياً وعملياً: ٩٦.

(٣) ينظر: لسان العرب: ٢٠٩٦/٣. وينظر: البلغة في شذور اللغة، اوكست هنكر: ٩٢.

(٤) لسان العرب: ٣١١٩/٤.

(٥) ينظر: حلبة الكميت في شعر النوادر والخمريات ، شمس الدين محمد النواجي: ١٦٨ .

قال أبو عثمان[١] : (من المنسرح)

وعَصفرتْ راحةُ المديـــــرِ كـَـما عَصفرَ جَيبَ الدّجنّةِ الشّفـــقُ

جَازتْ مدى الفِكر في الصّفا فَلَــو مَازجَــها الوَهْمُ مسّها رَنـــــقُ

يقول أبو عثمان أن لون هذه الخمرة، الأصفر المائل إلى الحمرة بدلالة (عصفرت) ، قد انتقل إلى راحة الذي يديرها، أي أن لونها ينتقل إلى يد الساقي، مثلما يعصفر الشفق جيب الدجنة، أي أن الشفق يضفي من لونه على الدجنة مستعيراً لها جيباً؛ إن الاستعارة المبنية على التشخيص في قوله:(جيب الدجنة) جعل الصورة اللونية غير المباشرة للسواد، توحي بالاتساع وشدة الظلام، لكن لون الخمرة قد أزاح هذا الظلام؛ فالشفق: هو بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل والشفق الثوب المصبوغ بالحمرة[٢].

(١) ديوان الخالديين:١٤٢-١٤٣.

* السلاف: من أسماء الخمر ويقول ابن السكيت في معنى السلاف: " ماسال منها من غير أن تعصر. وقال أبو حنيفة: إذا كانت أول مابزلت أو قدحت فهي سلاف، قال، وإذا انقعت الزبيب أياماً فأول مايرفع من عصارته السلاف فيكون مايخرج من الماء نطلاً" المخصص: ٧٨/١١ .

(٢) ينظر: قاموس الألوان عند العرب، عبد الحميد ابراهيم: ١٢٩.

الخاتمة

- احتلت الخمرة قسماً كبيراً من ديوان الخالديين، تفوقت به عن بقية اغراضهما الشعرية الأُخرى، جسدوا فيها براعة المشهد الخمري، مما يدل على شغفهما بها وتعلقهما الشديد بها حتى باتا ينافسا أشهر شعراء الخمرة في ذلك العصر كأبي نواس وأبي الهندي.
- اعتمدا في تشكيل صورهم الشعرية في لوحة الخمر على الألوان: الأحمر والأصفر لما يثيره هذين اللونين من إلهاب للمشاعر والأحاسيس، كونهما من الألوان الساخنة، فضلاً كونهما من الألوان التي تثير انتباه المتلقي.
- كثرة استخدام الفنون البلاغية ولاسيما فني التشبيه والاستعارة، مما وهب اللون قوة التأثير، وعمق الايحاء. فغدت صورهم الشعرية أكثر جمالاً ورسوخاً في الذهن.
- يشكّل الخمر غرضاً من أغراض القصيدة العربية منذ الجاهلية، وقد تصرّف الشعراء إما في أسمائها أو في كناها بحسب اللون، ورأوها وسيلة للفخر يفتخرون بشربها ويتلفون المال فيها ليدلّ ذلك على جودهم وكرمهم.

ثَبْت المصادر

أولًا: الكتب:

- الإضاءة المسرحية، شكري عبدالوهاب، د. ط، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٥.
- الألوان نظرياً وعملياً، إبراهيم الدّملخي، ط١، مطبعة أوفست الكندي، حلب، ١٩٨٣.
- البلغة في شذور اللغة، أوكست هنغر، لويس شيخو، د. ط ، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٨٠.
- تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، شوقي ضيف، ط ٨، دار المعارف، القاهرة ، د.ت.
- تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، نعيم اليافي، د. ط، صفحات للدراسة والنشر، دمشق، سوريا، ٢٠٠٨ .
- جدلية الخفاء والتجلي دراسات بنيوية في الشعر، كمال أبو ديب، د. ط، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٧.
- حديث الاربعاء، طه حسين، ط ١٤، دار المعارف، د. م ، ١٩٢٥ .
- حلبة الكميت في شعر النوادر والخمريات، شمس الدين محمد النواجي، د. ط ، المكتبة العلامية ، القاهرة ، ١٩٣٨ .
- ديوان الخالديين، جمع وتحقيق: د. سامي الدهان ، د.ط ، دار صادر، بيروت ، ١٩٩١.
- ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق: إميل بديع يعقوب، ط ٢ ، دار الكتاب العربي ، ١٩٩٦ .
- الرسم بالألوان في القرآن، أحمد رأفت عبدالمنعم، د. ط، دار الجميل، د. ت .
- شعر الخالديين دراسة فنية، شلاش القداح، د. ط، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ،٢٠٠٩ .
- شعر الديارات في القرنين الثالث والرابع للهجرة، صالح الشتيوي، د. ط ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ،٢٠٠٤ .
- شعر اللهو والخمرة تاريخه وتطوره، جورج غريب، د .ط، دار الثقافة، بيروت ،١٩٨٣ .
- الصورة البيانية بين النظرية والتطبيق، حنفي محمد شرف، د. ط، دار نهضة مصر، القاهرة،١٩٦٥.
- الصورة الفنية في المثل القرآني، محمد حسين عبد الصغير، د. ط ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ،١٩٩٠ .
- صورة اللون في الشعر الاندلسي، دراسة دلالية فنية، حافظ المغربي ، ط ١ ، دار المناهل للطباعة والنشر، ٢٠١٣.

- الصورة اللونية في الشعر العماني الحديث، سالم الجديدي ، د. ط ، مؤسسة الانتشار العربي، عمان، ٢٠١٤ .
- طاقة الألوان، مها محمد سعيد، ط ١ ، مؤسسة سوريانا للإنتاج الإعلامي ، د. م ، ٢٠١٦ .
- فصول التماثيل في تباشير السرور، ابن المعتز، ط١، المطبعة العربية، مصر ، ١٩٢٥.
- فقه اللغة، أبو منصور الثعالبي، تحقيق السقا والإيباري وشلبي، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٨٣ .
- فن الشعر الخمري، إيليا حاوي، د. ط، دار الثقافة، بيروت ، لبنان ، ١٩٩٧ .
- قاموس الألوان عند العرب، عبد الحميد ابراهيم ، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩.
- القصص القرآني في الشعر الاندلسي، أحمد حاجم الربيعي، د. ط، دار الشؤون الثقافية ،٢٠٠١ ، دار رسلان، ٢٠١١ .
- قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، محمد زكي عشماوي، د. ط ، دار النهضة العربية ، بيروت ،١٩٧٩ .
- لسان العرب، ابن منظور، د .ط ، دار صادر بيروت، لبنان ،١٩٩٥.
- اللون ودلالته الفنية والموضوعية، علي جاسم إسماعيل، ط١، دار غيداء للنشر والتوزيع، الاردن، ٢٠١٣.
- المختار من قطب السرور في وصف الانبذة والخمور، إبراهيم بن قاسم القيرواني، اختيار علي المسعودي، د. ط، المطبعة الرسمية، تونس، د. ت.
- المخصص، علي بن إسماعيل ابن سيدة، د. ط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
- مسائل في فلسفة الفن المعاصر، جان ماري جوبتين، ترجمة: سامي الدروبي، ط٢، دمشق، ١٩٦٥.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، د.ط، دار احياء التراث العربي، بيروت– لبنان ، د.ت.
- معجم تفسير الأحلام، ابن سيرين، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦.

ثانيًا: الرسائل والأطاريح:

- شعر الخمرة في العصر المملوكي، فواز شاكر أحمد الشروف، رسالة ماجستير، إشراف الدكتور: علي عمرو، جامعة الخليل، فلسطين، ٢٠١٣.
- شعرية النص المعري، نوار عبد النافع، أطروحة دكتوراه، إشراف الاستاذة الدكتورة: بشرى البستاني، جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٢ .
- الشيب والهرم في الشعر العربي في العصرين الإسلامي والأموي ودلالتهما الفنية، أطروحة دكتوراه، علي حسين جاسم الجنابي ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ،١٩٩٧ .
- صورة الساقي في خمريات النواسي، أحلام عبد الموجود النتشة، اشراف الاستاذ الدكتور: حسام مجمد عمر جلال التميمي، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، فلسطين، ٢٠١٣.
- اللون في الشعر الأندلسي، عبير فايز، اشراف الدكتور: فيروز الموسوي، رسالة ماجستير ،جامعة البعث، سوريا، ٢٠٠٧ .
- اللون ودلالته في الشعر الأردني، ظاهر محمد هزاع الزواهرة، اشراف الاستاذ الدكتور: ناصر يوسف شبانة، رسالة ماجستير ، الجامعة الهاشمية ، الأردن ، ٢٠٠٧ .
- مقومات الصورة في مملكة غرناطة، أحمد اسماعيل عبد الحميد، أطروحة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة ،١٩٩٦ .

ثالثًا: الدوريات:

- الخمرة في شعر أبي الشيص الخزاعي، عبد الامير ماذي مذكور، مجلة المورد، المجلد٤٨، العدد (١)، ٢٠٠٥.